الهوية بين الشكل والمضمون

مصطفى محمد طه *

شغل الإنسان بالبحث عن الهوية على مر العصور. وكانت غايته وهو بصدد بحثه الدائم الدائب عن هويته، هي صناعة الحضارة، والتدخل في حركة التاريخ بإرادته. ولا يصبح الإنسان باحثا عن هويته إلا في عصر التحولات، وتغير النماذج الإرشادية الحاكمة وتبدل المسلمات وتميع الهويات. ومن هنا فإن إشكالية البحث عن الهوية ليست إلا أطروحة للتحول الحضاري والنهضة والبحث عن صياغة جديدة لتاريخ الأمم والشعوب. وما هي إلا إشكالية تغير النموذج الإرشادي المسيطر على هوية مجتمع بعينه، والنماذج الإرشادية تلك ما هي إلا- إنجازات حضارية اعترف بها المجتمع في عصر معين، وشكلت هويته وأصبحت نموذجا للمشكلات وصياغتها والحلول، ومنهجا للرقي والارتقاء في سلم الحضارة الإنسانية(1).

إن هذا الموقف تجاه الهوية تتبلور قسماته البارزة، عندما توجد جماعة بأكملها في حالة من الحيرة تجاه موضوع الهوية، فنراها تشير بذلك، إلى أن هناك أسبابا مختلفة قد شوشت عمليات تلقي إرث الشفرة بالنسبة لعلاقات الأجيال فيها. وإذا ما تواصلت هذه الحيرة وأصبحت بمنزلة سمة مميزة لعدد من الأجيال على التوالي، فإن هذا دليل قاطع على أن هناك خطرا داهما يهدد هذه الجماعة، وهو خطر التفكك، إذ إن هذه الحيرة تجاه الهوية هي من العلامات الواضحة على أن الجماعة لم تنجح في أن تحافظ على تواصل أبنائها بها. ومن هنا فإنه يعد من الأمور المصيرية للغاية بالنسبة لها في هذه الحالة، أن تقوم في الوقت المناسب بعمل استيضاح حول ماهية هذه الحيرة التي تسود الجماعة حلو مسألة الهوية. وهذا الاستيضاح الثاقب والجدي هو الذي من شأنه أن ينقذ الجماعة من التفكك قبل فوات الأوان. إذ إن نتائجه يمكن أن يعيد لأعضاء الجماعة الإيمان بمركبات الشفرة بكاملها، أو يشير إلى تلك المركبات المنفصلة في الشفرة التي قد تكون في حاجة إلى تحديث وملاءمة مع ظروف العصر(2).

وفي هذا الإطار فإنه لابد من تحديد مضامين المصطلحات. فـ"الهوية" Identity، هي الحقيقة الجزئية حيث قالوا: إن الحقيقة الجزئية تسمى هوية، مما يعني أن الماهية إذا اعتبرت مع التشخيص سميت هوية. وقد تستعمل الهوية بمعنى الوجود الخارجي، وقد يراد بها التشخيص، وقالوا: إن الهوية مأخوذة من الهو، وهي مقابلة الغيرية(3).

وجاء في المعجم الوسيط أن الهوية: حقيقة الشيء أو الشخص التي تميزه عن غيره. وهي أيضا بطاقة يثبت فيها اسم الشخص وجنسيته ومولده وعمله وتسمى البطاقة الشخصية أيضا(4).

ولقد حاول محمد عمارة تقديم تصور شامل لمفهوم الهوية لغة واصطلاحا، مستعينا بالمعاجم القديمة والحديثة، فقال في هذا الصدد: إن "الهوية" بضم الهاء- مصطلح استعمله العرب والمسلمون القدماء. وهو منسوب إلى "هو" وهذه النسبة تشير إلى ما يحمله من مضمون، فهي تعني كما يقول "الجرجاني" في كتاب (التعريفات): "الحقيقة المطلقة، المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق". أما معاجمنا الحديثة فإنها لم تخرج عن هذا المضمون، عندما قالت عن "الهوية" إنها حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة، المشتملة على صفاته الجوهرية، والتي تميزه عن غيره" وتسمى، أيضا "وحدة الذات"(5). وبعبارات أدخل في موضوعنا، فإننا نستطيع أن نقول: إن الهوية الحضارية لأمة من الأمم، هي القدر الثابت والجوهري والمشترك من السمات والقسمات العامة، التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات، والتي تجعل للشخصية القومية طابعا تتميز به عن الشخصيات القومية الأخرى(6).

وإذا كان هذا هو تعريف الهوية من المنظور اللغوي والإجرائي، فإن الهوية من المنظور الفلسفي هي كلمة مولدة اشتقها المترجمون القدامى من الـ"هو" لينقلوا بواسطتها إلى العربية كما يقول –الفارابي- المعنى الذي تؤديه كلمة "هست" بالفارسية وكلمة "استين" باليونانية أي فعل الكينونة في اللغات الهند وأوروبية الذي يربط بين الموضوع والمحمول؛ ثم عدلوا عنها ووضعوا كلمة "الموجود" مكان الـ"هو" والوجود مكان "الهوية"، ومع ذلك فقد فرضت كلمة الهوية نفسها كمصطلح فلسفي يستدل به على كون الشيء هو نفسه(7). أما في المنظور الاجتماعي، فإن الهوية تعني تحديد المميزات الشخصية للفرد من خلال مقارنة خالته بالخصائص الاجتماعية العامة(8). فعندما تكون الأمة مالكة لتراث حضاري غني وعريق، وعندما تكون حضارتها من الحضارات التي تألفت، فتخطت بعطائها الحدود الجغرافية لهذه الأمة –كما هو حال أمتنا الإسلامية- عندما يكون هذا هو حال الأمة، فمن الصعب، بل والمستحيل، عليها أن تقف بنضالها في سبيل الاستقلال، عند "الاستقلال السياسي" أو حتى "الاستقلال الحضاري" الذي يعيد لها استقلال شخصيتها القومية، ويزيل آثار التشوه الفكري الذي لحق بها عندما فقدت الاستقلال، وخضعت لتأثيرات الغزاة! فإن البحث الجاد عن استكمال مقومات هذا الاستقلال الحضاري يحتم عليها إثارة التساؤل عن "الهوية" الخاصة بها، وأين تلتمس معالمها وقسماتها؟ أفي تراث الأمة وموروثها الحضاري؟ أم في الوافد الفكري؟ الذي وفد إلينا منذ بدء الاحتكاك مع الغرب، والذي لا زال يفد إليها من خلال ما يتم على الأرض العربية والإسلامية من تحديث مطبوع بالطابع الغربي والتغريبي. كما يثور التساؤل – كذلك- عن ماهية القسمات التي تكون "هوية" الأمة الحضارية؟ وهل الهوية هي كل التراث؟ وإلى أي مدى يصيب التطور والتغير "الهوية" الحضارية للأمة في مجرى التطور العام(9).

إن هذا التساؤل الحيوي هو سؤال الهوية الذي يطرح نفسه بين الفينة والفينة، وذلك من أجل تأكيد الذات. ولذا تعتبر "مشكلة الهوية" من أعقد المشكلات التي تواجه الكثير من

الشعوب والمجتمعات الحديثة في العصر الراهن سواء في ذلك المجتمعات ذات الأصول الحضارية القديمة، أو حتى تلك التي تفتقد الانتماء الحضاري القديم. وذلك لأن الهوية هي الشفرة التي يمكن للفرد عن طريقها أن يتعرف عليه الآخرون باعتباره منتميا إلى تلك الاجتماعية. وهي شفرة، تتجمع عناصرها العرقية على مدار تاريخ الجماعة (التاريخ) من خلال تراثها الإبداعي (الثقافة) وطابع حياتها (الواقع الاجتماعي). وبالإضافة إلى الشفرة تتجلى الهوية كذلك من خلال تعبيرات خارجية شائعة مثل: الرموز، العادات، التي تنحصر قيمتها في أنها عناصر معلنة تجاه الجماعات الأخرى، وهي أيضا التي تميز أصحاب هوية ما مشتركة عن سائر الهويات الأخرى. ولكن الملامح الحقيقية للهوية، هي تلك التي تنتقل داخل الجماعة وتظل محتفظة بوجودها وحيويتها بينهم مثل: الأساطير، والقيم، والتراث الثقافي(10).

ومن هنا، يمكن القول بأن الهوية الإسلامية، لا تتمثل في مجرد انتماء (إرادي) أو حمل للتسمية بقدر ما تتمثل بمنهجية حياتية عميقة وشديدة في الوقت نفسه، تتركز على توحيد الله سبحانه وتعالى بربوبيته وألوهيته وصفاته. وعلى الإيمان بأن رسالة محمد -صلى الله عليه وسلم- هي الرسالة الخاتمة، وأن ما تحمله من تعاليم العقيدة والتشريعات تمثل الحق المطلق وتمثل الدين المرتضى عند الله سبحانه وتعالى، الذي يجعل صلة الإنسان بالناس كصلته بالكون المحيط به، فهذا هو المنهج الذي قرره القرآن الكريم، في قوله سبحانه وتعالى: (قُلْ إِنَّ صَلاَتي وَنُسُكي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتي للهِ رَبِّ الْعَالمينَ. ـشريك لَهُ وَبِذلك أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّل الْمُسْلمينَ) (162) (163) سورة الأنعام. وإذا عرفنا أن الهوية بهذا المقدار من التربية لحياة المسلم، أدركنا مقدار الخطر الذي يمكن أن يسببه ما يعرض للمسلم من مؤثرات ثقافية وإعلامية واجتماعية قد تغريه بأن يتخلى عن شيء من التزامه الفكري أو السلوكي بالإسلام أو أن يستبدل ببعض معتقداته أو سلوكياته بدائل أخرى مجاراة للزمن أو تصورا لضرورتها للحياة القائمة(11).

ولقد جاءت القسمات البارزة لهذه الهوية مناداة عبر القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. ومن هنا أصبحت هوية ناصعة كنصاعة الشمس في رابعة النهار. وبالتالي فإن أصالة هذه الهوية لا- دخل لها البتة لا- من قريب أو بعيد، بما انتاب ولا يزال مسيرة السلميين الحضارية على ظهر هذا الكوكب الأرضي من مد وجزر، وهذا لأن المقومات الوجودية لهذه الأمة ذات أصالة إيمانية، بارزة للعيان. ومع ذلك فإن الملامح البارزة لهذه الهوية، قد تتأثر سلبا وإيجابيا إلى حد ما بما يشوب حياة المسلمين من تأزم حضاري أحيانا، كما هو الحال الآن في واقعنا المعاصر. إلا أن ذلك ينبغي ألا- يؤثر بأي حال من الأحوال على سرمدية هذا الدين، فضلا عن الدينامية القرآنية المتفجرة بكل القيم المشعة، وذلك لأن هذا الدين وكتابه المعجز من عند خالق الكون وبارئه (ألا- يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطيفُ الْخَبيرُ)(14) سورة الملك.

وإذا شئنا أن نضرب بعض الأمثلة للقسمات الجوهرية التي غدت لعمومها واستمراريتها، جزءا أصيلا في "هوية" أمتنا الإسلامية فإننا سنجد أن من أبرز هذه

المقومات العضوية الحية لهذه الهوية المقومات التالية:

المفهوم الأول:

إن العروبة المعنية هنا، هي العروبة بالمعنى الحضاري والفكري – وليس العروبة بالمعنى العرقي والعنصري- فلقد غدت العروبة التي سبقت في تاريخها طور التغريب. وقد استوت في هذا الولاء والانتماء للعروبة بأولئك الذين انحدروا من أصلاب عربية بالمعنى العرقي(12).

ويؤكد المنظور النسقي لهذه الظاهرة الحضارية أن العروبة رغم كل هذه التحديات التي مثلت عوامل وتحولات قامت في أرض الواقع، قد ظلت صامدة شامخة مستعصية على التحرك من موقعها الحصين، فليست هي إذن "بالبناء الفوقي" الذي يصيبه التغير بتغير الظروف، وإنما هي جوهر ثابت، كما هي نسق "عام وشامل" له صفة "الاستمرارية"، إنها "هوية" وليست مجرد تراث! وجدير بالذكر أن هذه العروبة ليست خصوصية للأمة العربية، وإنما هي لازمة من لوازم الإسلام، فهي عروبة اللغة التي يستحيل على المسلم من أي جنس، أو لون، أو قومية أن يفقه القرآن المعجز، فيبلغ في فقهه مرتبة الاجتهاد والتشريع دون أن يكون عربي اللغة، كما يستحيل على هذا المسلم، من أي لون أو جنس أو قومية، أن يفقه علوم الشريعة الإسلامية وفي مقدمتها الحديث النبوي وعلومه، ومدونات الفقه الإسلامي وأغلبها عربي اللغة دون أن يكون هذا الفقيه عربي الثقافة. فإذا لم تكن العربية شرطا في التدين بالإسلام، فإنها شرط للتفقه والاجتهاد فيه. وهكذا نجد أن "العروبة" قرينة "للإسلام" تنتشر بانتشاره وتزدهر بازدهاره، إذا لم تلق في طريقهما المعوقات التي تستهدفهما معا. إنها عروبة الفكر والثقافة واللغة والحضارة، تلك هي التي أثمرها الإسلام، وليست عروبة الجاهلية وعصبيتها العرقية القاصرة(13).

المقوم الثاني: التدين

يعدُّ التدين ولا ريب، قسمة من القسمات العضوية والثوابت التي تكون جزءاً من "هوية" هذه الأمة. ونحن بالطبع، لا نزعم أن أمتنا وحدها هي المتدينة من بين الأمم الأخرى. فالتدين- خاصة في الحضارة الغربية- قد وقف عند "الفرد" واقتصر على علاقة الفرد بخالقه، أما في حضارتنا الإسلامية، فلقد وجدناه يتعدى علوم الوحي والشرع إلى علوم الدنيا وفنونها؛ فهو الروح العامة السارية في كل علوم التمدن والإبداع الحضاري وتنمية العمران البشري، وليست محصورة فيما عرفته الحضارة الغربية تحت عنوان "اللاهوت"، فنحن أبناء "حضارة مؤمنة"، ارتبطت فيها العلوم جميعا، بما فيها "العلوم البحتة" بالقاعدة الإيمانية، إنها "الحضارة المؤمنة"، التي يذكر فيها اسم الله في كل شيء وليس في الصلوات فقط، نستفتح الأكل باسمه ونختتمه بحمده، ونهل بذكره على الذبائح، ونلجأ إليه عند الحزن، وعند السرور في وقت الضحك، وساعة البكاء، فإن كل مسعى للإنسان المسلم سواء أكان عبادة أو حتى ترويحا عن النفس، فضلا عن مباشرته متع الحياة المشروعة مبتغيا بها وجه الله(14).

وفي ضوء هذا المنطلق الإيماني، يمكن القول بأن هذه الروح المتدينة – في حضارتنا- كان محورها ومزاجها هو "التوحيد" –به تميز تدينها، وتميزت سماتها وقسماتها جميعا- حتى لنستطيع القول إن هذا "التوحيد" قد غدا "هوية" تتميز بها أمتنا وحضارتنا عن غيرها من الأمم والحضارات، فالتوحيد الإسلامي الذي بلغ الذروة في النقاء والقمة في التجريد، عميق وقديم في المكونات الفكرية لتراثنا، حتى أن وثنية العرب القديمة في جاهليتهم التي سبقت الإسلام، كانت "انحرافا" عن جوهر ونقاء هذا "التوحيد" [وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّهُ25)]) سورة لقمان. [مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلى اللّهِ زُلْفَى3)]) سورة الزمر. فهو إذن- التدين، والتدين بروح التوحيد- من القسمات الثوابت، التي غدت في حضارتنا الإسلامية "هوية" تتميز بها هذه الحضارة عن غيرها من الحضارات(15).

المقوم الثالث: الاعتدال

يمكن لنا القول بأن الاعتدال هو الذي جعل هذه- وأمتها- ترفض "الغلو" بكل صوره، وفي كل الميادين، هو الآخر من القسمات التي غدت "هوية" تتميز بها عبر تاريخنا الحضاري الطويل، فهذا الاعتدال هو الذي جعلنا أمة وسطا، نقف موقف الشاهد الذي هو "عدل" بين ظلمين وحق بين باطلين و"واعتدال" بين تطرفين. وهذا الاعتدال هو الذي نسميه "الوسطية الإسلامية" تلك التي جعلها الله سبحانه وتعالى خصوصية هذه الأمة – أي "هويتها" وصفة من صفاتها المميزة لها(16). [وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ143)]) سورة البقرة.

وفي هذا السياق الحضاري، فإننا لا- نغالي إذا قلنا: إن هذه "الوسطية الإسلامية" قد غدت –لمركزها ومركزيتها في القسمات- جماع "الهوية الإسلامية"، وزاوية الرؤية الصحيحة والوحيدة لكل من أراد إدراك حقيقة السمات التي تميزت بها حضارتنا، أي إدراك حقيقة جوهرها و "هويتها" كما غدت معيار تقدم الأمة- يوم سادت، وتألقت في إبداعها الحضاري وسبب تراجعها وجمودها وتخلفها، عندما أخلت مكانها للغلو والتطرف، ذات اليمين أو ذات الشمال. تلك كانت بعضا من السمات الثوابت، التي تكون الهوية الحضارية لأمتنا، عبر تاريخها الحضاري، والتي ينبغي أن تكون بمثابة سمات وقسمات بارزة في مشروعها الحضاري للنهوض المعاصر المنشود، على حد تعبير محمد عمارة.

ومن هنا نرى أن الهوية الإسلامية، قد بلورت إلى حد كبير الملامح البارزة لوجود هذه الأمة المتمايزة في أصالتها القرآنية ووسطيتها الحضارية، ولقد تجسدت القسمات البارزة، لهذه الهوية تجسيدا حيا، عبر مسار الوجود الحضاري لهذه الأمة، منذ تلك اللحظة التاريخية الباكرة التي انبثقت فيها لأول مرة من رحم التاريخ الحضاري الإسلامية، عندما نزل سفير السماء وأمين الوحي، سيدنا جبريل عليه السلام بالقرآن الكريم على قلب رسولنا الأكرم -صلى الله عليه وسلم- (الحنيفية السمحاء). وكانت أول آية في هذا الكتاب

الخالد، هي قوله تعالى: [اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ منْ عَلَقٍ. اقْرَأ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الذي عَلَّمَ بِالْقَلمِ. عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ5-1)]) سورة العلق، ومن يومها انبجست من ضمير الغيب أمة وسط ذات هوية متميزة، ومن ثم فهي باقية بقاء هذا الكون.

وفي ضوء هذا المنطلق الإيماني الرشيد، يمكن القول بأن تأكيد الأصالة الحضارية للأمة، إنما يعني ضمن ما يعني أن تكون حياتنا كمسلمين –سواء في بعدها العقدي أم الحضاري- مصاغة في لحمتها وسداها، وفقا للنسق القرآني المعجز، الذي قدم عبر معطياته التأطير الأمثل لحياة أمتنا وسط الأمم قاطبة. وذلك لأن الهوية هي التي تحدد الشعور العميق الوجودي الأساسي للإنسان، والشعور العميق الخاص بانتمائه. وذلك لأن الانتماء يمنح الفرد غايته وأمل حياته عبر المسؤولية عن هوية الجماعة، واستمرارية أنماط تراثها المختلفة، المادية والروحية، والأمل في أن جهوده الإبداعية والوجودية لن تذهب هباء بموته، بل ستغذي حياة الجماعة حتى بعد وفاته. ومن يكون لديه الارتباط بهويته على هذا النحو، لا يتصرف وفقا لقانون المصادفة، لأن الفرد الذي يتصرف وفقا لهذا القانون، يكون مفتقدا للهوية ومفتقدا للانتماء ومحكوما عليه بأن يعيش حاضره فحسب، لفترة السنوات التي تحدد له أن يحياها على الأرض، وينغمس في هذه الحالة، فالإنسان الذي يحدث لديه نوع من الخلل في استيعاب الرسالة المشفرة الخاصة بمجتمعه، فإنه عادة ما يعاني من الحيرة فيما يتصل بهويته الذاتية(17).

وفي التحليل الأخير، نرى أن حديث الهوية ولا- سيما في هذه الأيام، حيث أن أمتنا الإسلامية تقف في مفترق طرق، يعتبر بمثابة رد موضوعي على هؤلاء الذين يعيشون حالة السقوط الحضاري، فضلا عن شعورهم بالتأزم تجاه الآخر. وبناء عليه، فإننا نأمل أن نتمكن جميعا من رسم ملامح المشروع الحضاري الإسلامي الذي أصبح ضرورة عصرية وفقا لقناعة إيمانية، وذلك حتى تعود لأمتنا الريادة الحضارية، كما كان العهد بها من قبل، فضلا عن الشهود الحضاري على الآخرين.

****

الهوامش

*- باحث في الحضارة الإسلامية من جمهورية مصر العربية.

1- د. عمرو علي بركات: الهوية الجديدة بين مالك بن نبي وعلي عزت بيجوفيتش، مجلة القاهرة، العدد 165، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1417 هـ 1996م، ص38-39.

2- د. رشاد عبد الله الشامي: إشكالية الهوية في إسرائيل، سلسلة عالم المعرفة 422، المجلس الوطني للثقافة الفنون والأدب، الكويت، 1418هـ 1997م، ص8.

3- النكري: موسوعة مصطلحات جامع العلوم "الملقب بدستور العلماء"، تحقيق: د.علي

دحروج وآخر، ترجمة: د.عبدالله الخالدي وآخر، مكتبة لبنان، بيروت 1417هـ 1997م، ص964.

4- د. إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، الجزء الثاني، دار الدعوة، استنبول 1410هـ 1989م، ص998.

5- د. محمد عمارة: الهوية الحضارية، مجلة الهلال، عدد فبراير 1997م، دار الهلال، القاهرة 1417هـ 1997م، ص35.

6- محمد عمارة: المرجع السابق، ص36.

7- محمد عابد الجابري وآخرون: الموسوعة الفلسفية العربية، المجلد الأول (الاصطلاحات والمفاهيم)، مصطلح الهوية، معهد الإنماء العربي، بيروت 1406هـ 1986م، ص821.

8- د. فردريك معتوق: معجم العلوم الاجتماعية، أكاديميا، بيروت 1413هـ 1993م، ص190.

9- د. محمد عمارة: الهوية الحضارية، مجلة الرافد، العدد الأول، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة 1414هـ 1993م، ص2-3.

10- د. رشاد عبدالله الشامي: المرجع السابق، ص7.

11- د. عبدالرحمن الزبيدي: ماذا تعني الهوية الإسلامية؟، مجلة الدعوة، العدد 1544، مؤسسة الدعوة الإسلامية الصحفية، الرياض، 1417هـ 1996م، ص30.

12- د. محمد عمارة: مجلة الهلال (مرجع سابق)، ص36.

13- د. محمد عمارة: مجلة الرافد (مرجع سابق)، ص4.

14- د. محمد عمارة: هويتنا الحضارية، مجلة القافلة، العدد العاشر، إدارة العلاقات العامة، أرامكو السعودية الظهران، المجلد الرابع والأربعون، 1416هـ 1996م، ص10.

15- د. محمد عمارة: الهوية الحضارية، مجلة الهلال (مرجع سابق)، ص42-43.

16- د. محمد عمارة: الهوية الحضارية، مجلة الرافد (مرجع سابق)، ص7.

17- د. رشاد عبد الله الشامي: المرجع السابق، ص7-8.